الفصل الخامس

زُهَير بن أبي سُلْمى (٥٣٠ـ٦٢٧)

١ً حياته : زهير شاعر مُضريّ تتلمذ لبشامة رجل العقل والحكمة، ولأوس بن حجر زعيم المدرسة الاوسية. ثم انقطع لِهرِم بن سنان وخصّه بأحسن شعره. ومات نحو سنة ٦٢٧ .

٢ً آثاره : له ديوان شعر ، اشهر ما فيه المعلقة التي نظمها على أثر انتهاء حرب السباق ، والتي تحتوي، فضلاً عن مقدّمات الغزل وما اليه، شعراً إصلاحياً وطائفة من الحكم والامثال العامّة .

٣ً شخصيّته الشعرية ــ رجل التعقّل والرصانة : كان رجل العقل اذ جعل للعقل المحلّ الاول في حياته وفي شعره : فجرى على سننه في التفكير والقول والعمل ، ونقّح شعره وثقّفه بروّية ورصانة ، وقرّب الحقائق الى الافهام بجعلها ماديّة ملموسة ، وذلك بأسلوب خطابيّ حاول فيه الاقناع ؛ ثم تحرّى الوضوح والايجاز والمتانة . وكان كلامه بسبب سيطرة العقل لا يخلو من جمود .

٤ً زهير شاعر الاصلاح :

١ ــ المدح : كان مدحه شكراً وتشجيعاً ، وكانت معاني مدحه الصفات البدويّة الشريفة التي يحبها البدويّ الحرّ . وامتاز مدحه بالصدق ، وقد جرى فيه الشاعر على الاسلوب التقليديّ القديم الذي لا يخلو من قصص .

٢ ــ الهجاء : يتّصف بالرصانة ويرمي الى اصلاح السيرة والنفس ، ويتخلله جدل منطقي مع المهجوّ ، وقد يتخذ احياناً لهجة لاذعة عنيفة .

٥ً زهير شاعر الحكمة :

١ ــ مصدر حكمته : هي وليدة الزمن والاختبار .

٢ ــ موضعها : يمثّل زهير فئة المؤمنين بالحياة الاخرى، المتمسّكين بالفضيلة الشخصيّة والاجتماعية من وفاء وقناعة وإقدام ، ومصانعة وبذل .

٣ ــ قيمتها : واسعة النطاق ، قليلة الحياة ، ساذجة في أكثرها .

٦ً زهير شاعر الوصف :

١ ــ نزعته الفنيّة : نزعة أوسيّة في هدوء واطمئنان .

٢ ــ الدقّة : تحديد المكان والزمان ، وذكر الجزئيات ودقائق الاحوال .

٣ ــ التجسيم : تجسيم الماديات والمعنويات متذرّعاً بالتشبيه المادى ، وقد يتحوّل تشبيهه الى استدارات طويلة .

٤ ــ الحياة : تتجلى بالحركة والقصص .

١ً حياته :

١ ـ **أصله ونشأته** : زُهير بن أبي سُلمى ربيعة من مُزَينة من مُضَر، وُلد في نجد. وكان ربيعة أبو الشاعر قد ترك قومه وأتى غطفان وتزوّج أمّ عمرو في قومها وكانت تربطه بهم قرابة، فكان له منها زهير الذي نشأ وترعرع في غطفان. وكان في غطفان شيخ حكيم مُقعَد، غنيّ برجاحة العقل والمال، هو بشامة الشاعر خال ربيعة والد زهير. فلزمه هذا وحفظ له وأخذ عنه الشعر والرصانة، والرغبة في إصلاح مجتمعه القبَليّ. ثم تتلمذ لزوج أمه أوس بن حَجَر زعيم المدرسة المضريّة التي تنسب اليه، فاتخذ طريقته في الشعر.

٢ ـ **زواجه** : أقام زهير في غطفان وتزوّج فيهم مرّتين على الاقلّ، ففي المرّة الاولى تزوّج أمّ أوفى؛ واذ لم يكن له منها أولاد طلّقها بعد أن تزوّج عليها كبشة. وقد أنجبت له كبشة شاعرَين هما كعب صاحب «بانت سُعاد» وبُجير.

٣ ـ **شاعر هرم بن سنان** : انقطع زهير لسيّدٍ شريف اسمه هرِم بن سنان، لما عُرف من كرمه واشتهر عنه من حبّ الخير والسلام، فخصّه بأحسن شعره حتى المعلقة التي ضمّنها مدحه ومدح الحرَث بن عوف لتوسّطهما بالصلح بين قبيلتيْ عبس وذبيان في حرب السباق. وأولع هرم بشعر زهير فأغدق عليه العطايا، فكان من ذلك أنّ زهيراً عاش في الجاهلية «سيّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع».

٤ ـ **وفاته** : ومات زهير نحو سنة ٦٢٧ وله من العمر نحو ٩٧ سنة، قضاها رزيناً حليماً، ناصحاً بما فيه الخير والسلام، محبّاً للحقّ. وقد ذهب بعض المؤرخين الى انه كان نصرانياً لما رأوا في شعره من النزعة الدينية التوحيدية الصافية، والايمان بالبعث والحساب.

٢ً آثاره :

لزهير ديوان شُرح مرّات؛ وقد طبع شرح الأعلم الشنتمريّ (١٠٨٣)، في

ليدن سنة ١٨٨٨، ثم في مصر سنة ١٩٠٥؛ وكان اول من نشر الديوان وليم بن الورد سنة ١٨٧٠.

وديوانه مملوء بمدح الاشراف من غطفان، وبمدح هرِم بن سنان وقومه، والحرث ابن عوف. **وفيه الغزل والهجاء والفخر** وذلك قليل؛ وطيّ ذلك كثير من **الوصف والحكَم**. وأشهر ما في ديوانه المعلقة التي مطلعها:

أمِن أمّ أوفى دِمنةٌ لم تكلّمِ بحَومانةِ الدرّاجِ فالمتثلّمِ [1]

وميميّة أخرى مطلعها:

قِفْ بالديارِ التي لم يَعفُها القِدَمُ بلى وغيّرَها الأرواحُ والدِّيَمُ [2]

وقافيّة مطلعها:

إنّ الخليطَ أَجدّ البَيْنَ فانفرَقا وعُلِّقَ القلبُ من أسماءَ ما عَلِقا [3]

وكافيّة مطلعها:

بانَ الخليطُ ولم يأوُوا لِمنْ تركوا وزوّدوكَ اشتياقاً أيّةَ سَلكوا [4]

أما **المعلقة** فهي ميميّة على البحر الطويل يبلغ عدد أبياتها ٦٤، وقد شرحها الزّوزني والتّبريزي وغيرهما وطُبعت منفردةً في أماكن مختلفة، كما تُرجمت الى لغاتٍ عدّة منها اللاتينية والفرنسية والانكليزية. واليك بعض المعلومات عنها:

١ً الباعث على نظمها: نُظمت المعلقة على أثر انتهاء الحرب بين عبس وذبيان،

---

(١) أمن أمّ أوفى: يريد أمِن منازل أمّ أوفى؛ وأم أوفى: كنية امرأة الشاعر؛ والاستفهام للتوجع. الدّمنة: آثار الدار. حومانة الدرّاج والمتثلّم: موضعان. يقول: أهذه الدمنة، التي لا تجيب سؤالي، من منازل أم أوفى؟ (٢) لم يَعفها: لم يدرسها ويمحُ أثرها. بلى وغيّرها...: استدرك الشاعر كلامه للدلالة على ان بعضها عفا وبعضها لم يعفُ (٣) الخليط: المخالط في الدار، وهو للمفرد والجمع. أجدّ البَين: اجتهد في الفراق وحققه. انفرق: انقطع وتفرّق. ما علق: في هذا القول مبالغة وتقوية للمعنى (٤) ولم يأووا: أي لم يرقّوا ولم يرحموا. يقول: ابتعدوا عنك بمن تحبّ ولم يرقّوا لك، وجعلوا زادك الاشتياق اليهم أيّة جهة سلكوا واخذوا.

والغرض منها مدح المصلحين ، وأكثر من ذلك الموعظة للكفّ عن الاحقاد والرجوع عن سفك الدماء .

٢° أقسامها : تُقسم المعلقة الى قسمين كبيرين :

١ – قسم غزليّ يصف فيه الشاعر الاطلال والرحيل (١ – ١٥) .

٢ – قسم إصلاحيّ :

١° مدح المصلحين وقصّ كيفية عقدهما الصلح (١٦ – ٢٥) .

٢° نصائح للمتصالحين ختمها الشاعر بوصف الحرب وتحذير عبس منها (٢٦ – ٣٥) .

٣° اعتذار عن ذبيان وذكر قصّة حصين بن ضمضم (٣٦ – ٤٧) .

٤° طائفة من الحكم والامثال العامة (٤٨ – ٦٤) .

* * *

وها اننا سنأخذ في درس هذه الآثار معتمدين المعلقة بنوع خاص لانها تحتوي اكثر اغراض شعر زهير واكثر ميزاته .

٣° شخصية زهير الشعرية – رجل العقل والرصانة :

١ – عوامل شخصيّته ونزعتها : طُبع زهير بن أبي سُلمى على التعقّل والرّصانة ، ونشأ في كنف بشامة خال أبيه ، وكان بشامة رجلًا ذا حزم وحكمة ورزانة ، فتخلّق زهير بأخلاقه ، مضيفاً الى الطبع ثمرة المثل الصالح ؛ وأحبّ الاستقامة في القول والعمل ، في نفسه وفي غيره كما مال الى الحِلم والمسالمة والحقّ ، ونصب نفسه للوعظ الحكيم والقضاء العادل ، ومحاربة كل شذوذ غير مألوف في الحياة الاجتماعية . فمثّل الناحية العاقلة المتعففة المهذَّبة التي كان عليها فضلاء العرب ، كما مثّل امرؤ القيس وطرفة الناحية المتهتّكة والشباب اللاهي . وهكذا استحقّ ان يُسمى شاعر الرصانة ، **لانه كان رجل العقل ولانه جعل العقل المحلّ الاول في حياته وفي شعره .**

٢ — **الجري على سنن العقل في التفكير والقول والعمل**: ولا نعني بذلك ان زهيراً كان رجل العقل الذي يغوص وراء المعاني العميقة والافكار الدقيقة، او كان رجل الثقافة الواسعة الذي يحلّق في الآفاق الفسيحة والاجواء السامية، او كان رجل المنطق الدقيق الذي يقيم الاقيسة، ويُسلسل الفِكَر، ويحسن استخلاص النتائج من المقدّمات بطرق علمية عميقة؛ انما نعني ان زهيراً كان **يجري في تفكيره وفي اقواله واعماله على سنن العقل، ذلك العقل الساذج القريب من الفطرة، والقريب من المادّة، الذي لا يقول غير ما يعرفه الناس**؛ ذلك العقل الذي لا تطغى عليه الاهواء فتفسده، ولا تضله الاميال العاصفة الهائجة فتخرجه عن سويّ سبيله. **فهو هادئ يريد ان يكون مصدراً للكلام، وقاضياً في مذاهبه، وقائداً الى الغاية التي يرمي اليها، فيسيطر على القوى كلها، ويجري الخيال والعاطفة على نواميسه، ويستعملها في ما يريد وبقدر ما يريد.**

٣ — **التّنقيح**: يرمي زهير الى النّفع في شعره، ولا ينظم لإرضاء الفنّ الصافي، ولا لإرضاء الحاجة الشعريّة فيه؛ وهو لاجل ذلك «يأخذ شعره **بالثّقاف والتّنقيح والصّقل**، وكأنه يفحص ويمتحن كل قطعة من قطع نماذجه؛ فهو يُعنى بتحضير موادّه، وهو يتعب في هذا التحضير تعباً شديداً». وقد نُسبت اليه **«الحوْليّات»** التي قيل انه كان يقضي حولاً كاملاً في نظمها، ثم في تهذيبها، ثم في عرضها على أخصّائه.

٤ — **تقريب الحقائق الى الافهام والاسلوب الخطابي**: فهو يعرض للحقائق الراهنة، يتناولها بعقله قبل خياله، ثم يستعين بخياله ليكسوها حلة **تقرّبها من الحواس وتجعلها ملموسة مادّيّة** وان كانت معنوية، وذلك بمعزل عن كل اندفاع عاطفيّ شديد، وعن كل انطلاق خيالي رحيب. وهو كثيراً ما يعمد في تعبيره الى **الاسلوب الخطابيّ** الذي يحاول فيه الشاعر **الاقناع**. فيدعم كلامه بالحجج والبراهين، ويجادل ويصوّر، كما فعل عندما اراد، في معلقته، ان يظهر شناعة الحرب؛ فقد بيّن اهوالها ونتائجها بالعرك والانتاج والإغلال وما الى ذلك مما يقنع الذين خبروها وعرفوا شرّها:

فتَعرِكْكُمُ عَركَ الرَّحى بثِفالِها ... وتَلقَحْ كِشافاً، ثمَّ تُنتَجْ فتُتئِمِ(١) ...

٥ — الوضوح : ومن اجل ذلك كلامه واضح. ووضوحه متأت عن قرب متناول افكاره، وعن الباسها لباس المادّة، ثم عن تجنّب التعقيد والغموض والمعاظلة وتجنّب المجاز البعيد الاشارة الذي ليس له مع الحقيقة علاقة قريبة؛ ففي البيت السابق مثلاً يتبادر المعنى الى العقل مهما كان ساذجاً، وان كان ذلك المعنى متخذاً من صورة عَرْك الرَّحى ... ومما يزيد كلام زهير وضوحاً هو حسن تنسيقه عموماً. فمعلقته من اكثر الشعر القديم ترتيباً يكاد يكون منطقياً في مدحه هرِم بن سنان والحرِث بن عوف، ثم في نصيحته للمتصالحين ووصف الحرب والاعتذار عن اهل القاتل ...

٦ — الايجاز والمتانة : والتعقّل عند زهير يجنح به عن فضول الكلام والاطناب الذي لا فائدة منه، ومن ثمَّ فشعره يمتاز بالايجاز، والمتانة التركيبية، والبعد عن السخف، وألفاظه منتقاة مفهومة في مجملها، تتتابع في رصانة وجزالة، من غير ما صخب ولا اضطراب الا في بعض المواقف العنيفة كما في وصف الحرب، حيث تسير في حركة شديدة سريعة.

٧ — الجمود : إلا ان شعر زهير على اتزانه قد اصطبغ، بسبب كل ما تقدّم، بشيء من الجمود؛ فقد قلَّ ماؤه، كما قلّ رواؤه. حتى لا نكاد نجد فيه اصداء لنزعات النفس وتوثّب القلب، كما لا نجد فيه بعض ذلك الغموض الذي يدلّ عليه اللمح ويستشفّه القارئ من غير ان يتبينه، ويشعر بلذّة في استكشاف معانيه.

٤ً زهير شاعر الاصلاح :

كان زهير غيوراً على إصلاح مجتمعه القبلي محبّاً لكل من يعمل الخير ويسعى

(١) فتعرككم : يعني الحرب، أي تطحنكم وتهلككم. الثفال : جلدة تكون تحت الرّحى اذا أديرت يقع الطحين عليها، والمعنى تَعرُكُ الرحى طاحنةً. تلقح كشافاً : أي تحمل مرّتين في السنة. تنتج : تلد. فتتئم : فتلد توأمين. — إنه يفظّع بهذا القول أمرَ الحرب ليقبلوا الصلح.

في توطيد السلام بين الناس، ناصحاً لكل ذي غواية حتى يعدل عن غوايته. فاصطبغ شعره بهذه الصبغة الاصلاحيّة. فنسمعه مثلًا يصرّح بالنصح يوجّه الى المتصالحين حتى لا يعودوا الى الحرب فيقول:

أَلا أَبلِغِ الأَحلافَ عَنّي رِسالةً وذُبيانَ: «هَلْ أَقسَمْتُمُ كلَّ مُقْسَمِ[1]؟
فلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في صُدُورِكُمْ لِيَخفى، ومَهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ!
يؤَخَّرْ، فيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَومِ الحسابِ، أَو يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ[2]!»

ونراه اذا مدح أو هجا، كان الاصلاح رائده؛ وما الغزل في شعره إلا طريقٌ تقليدية الى غايته الاصلاحية هذه. ولاجل ذلك سندرس في هذا الموضع المدح والهجاء كما سندرس الغزل كوسيلة، تاركين الحكمة لموضع آخر قصد التبسّط فيها لما لها من الاهمية في شعر زهير وفي نظر النقّاد.

١ – **المدح** : كان زهير يعجب بالاعمال الكريمة، ولاسيما تلك التي تنشر الخير وتوطّد السلم، وكان اذا رأى من أحدٍ عملًا إصلاحياً يؤول الى خير الجماعة والقبيلة، بادر الى **مدحه وشكره وتشجيعه**. فقد مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف اللذين اصلحا ذات البين بين عبس وذبيان، ودفعا الدّيات من مالهما الخاص وحقنا الدماء. ومدح حصن بن حذيفة بن بدر رجل الكرَم والعزم، والحِلم والعدل؛ ومدح غيرهم ايضاً من ذوي الفضل والمعروف. وقد لا يخلو مدحه من **بعض التكسّب المعقول**، فهو يكثر من مدح المحسن الكريم، وكثيراً ما يعرض للجود والصّلات في مدحه، وفي ذلك شكر كما فيه تشجيع على مواصلة العطاء سواء كان العطاء للشاعر نفسه او لغيره؛ قال في مدح حصن بن حذيفة:

... أَخي ثِقَةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ولٰكِنَّهُ قد يُهلِكُ المالَ نائِلُه[3]

(١) الأحلاف : أسد وغطفان وطيّىء. هل أقسمتم.... : أي هل حلفتم كل الحلف لتفعلنّ ما لا ينبغي (٢) يقول : لا تضمروا خلاف ما تظهرون فان الله يعلم السرّ. فان لم تكشفوا ما في نفوسكم عجّل الله لكم العقوبة فانتقم منكم، أو أخّركم الى يوم تحاسبون به فتعاقبون.
(٣) أخي ثقة : أي يوثق بما عنده من الخير لما عُلِم من جوده وكرمه. النائل : العطاء.

تَراهُ ، إذا ما جِئتَـهُ ، مُتَهَلِّلا كأنَّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائلُهْ . . .

١ ـ أما معاني مدحه : **فهي الصفات البدوية الشريفة التي يحبها العربيّ الحرّ** ويتحلّى بها في كل وقت كالشجاعة والنجدة والرأي وكرم الاصل ، والتقوى والخلق الجميل ومن الخلال التي يمدح بها حسن التصرُّف بالمال ، فالممدوح لا يؤثر به نفسه بل يستخدمه للخير القبلي .

٢ ـ وأما قيمة مدح زهير فقائمة قبل كل شيء على **الصدق في القول** ؛ فزهير رجل العقل والرصانة لا يضيف الى الرجل غير ما فيه ، فلا يجنح الى السُّخف والاحالة ؛ واذا بالغ فمبالغته تبقى في حدود المعقول ؛ وقد شهد هو نفسه عـلى ذلك بقوله مخاطباً هرم بن سنان :

أُثني عَليكَ بِمـا عَلِمتُ ، وما سَلَّفتَ في النَّجـداتِ والذِّكرِ[1]

٣ ـ وأسلوب زهير في مدحه **هو الاسلوب التقليديّ القديم الذي لا يخلو من قصص** ؛ فالشاعر يفتتح قصيدته بذكر الديار ثم ينتقل احياناً الى فرسه فيصف سرعته ، والى غلامه فيصف معرفته بالطعن ؛ وبعد وصف الصيد يتخلّص الى الممدوح . وغزله في بدء قصائده المدحيّة وغير المدحية **يخلو من هيجان العاطفة وتدفّقها** ، **لانه وليد العقل لا الشعور** ؛ فكأني بزهير يأتي به مكرهاً ، مجاراةً للعادة والتقاليد المرعيّة لا غير ؛ وهو فيه زاهد معجِّل ، لا يمنحه من جهده ووقته إلا اليسير ؛ ولا يقول فيه إلا ما يمكن صدوره عن رجل متعفّف تحلّى بالوقار .

وفيهِنَّ مَلهىً لِلَّطيفِ ، ومَنظَرٌ أنيقٌ لِعَينِ النّـاظِرِ المُتَوَسِّمِ

٢ ـ الهجاء : يتّصف هجاء زهير عادةً **بالرصانة** ، فهو يحكّم فيه العقل ، ويرمي به الى اصلاح السيرة والنفس ، فيدخل مع المهجوّين في جدلٍ منطقيّ يردّ به على الحجج التي في وسعهم ان يتذرّعوا بها لتبرير ساحتهم ، كما فعل ذلك في

(١) أثني عليك بما علمتُ : أي بما بلوتُ من امرك وشاهدتُ من وجودك وكرمك . سلّفتَ : قدّمتَ . النّجدات ج نجدة وهي الشدّة والبأس . الذّكر : ما يُذكر به من الفضل .

هجائه لآل حصن حيث أتى بالبيت الشهير الذي ضمّنه خلاصة التقاضي، وسمّي زهير لاجله «قاضي الشعراء»:

وإنّ الحقّ مقطعُهُ ثلاثٌ : يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ[1]

إلا ان هجاءه يتّخذ **احياناً لهجة لاذعة عنيفة** لا تخلو من إقذاع، وذلك اذا لم يلتفت المهجوُّ الى النصح والارشاد، ولم يصلح الخلل عن عناد وغيّ.

٥ً زهير شاعر الحكمة :

نصب زهير نفسه قاضياً وحكماً، وأخذ على عاتقه إصلاح مجتمعه، فعمد الى الارشاد والنّصح، ونطق بالحكمة مضمّناً لها عقيدته ومذهبه في الحياة، **وجعل من حكمته هذه دستوراً مفصّلاً لتهذيب النفس، وحسن التصرّف والسياسة الاجتماعية البدويّة.**

١ — **مصدر حكمة زهير** : عاش زهير أكثر من ثمانين عاماً فعرف الحياة وخبر حلوها ومرّها، فأملت عليه شيخوخته الحكيمة الهادئة، وخبرته الواسعة، وغيرته على الاصلاح القبَليّ، آراءه الحكميّة؛ وزاد عليها ما سمعه من أفواه الناس. وفيما كانت حكمة طرفة وليدة الفتوّة والاختبار الشخصيّ والاندفاع العاطفيّ كانت **حكمة زهير وليدة الزمن والاختبار الشخصي والعالمي البعيد عن ثورة العاطفة واندفاع الاهواء**، وليدة العقل الهادئ الذي يرقب الاحوال والناس ويستخلص الدروس التي توصل الى سعادة الحياة الجاهلية.

٢ — موضوعها : ينظر زهير الى الحياة نظر من سئمها لطولها وغموض مستقبلها، ولخبط الموت فيها خبطاً اعمى، لا تميز فيه بين الصالح والشرّير، والكبير والصغير.

---

(١) يقول : ان الحقّ مقطعه ثلاث خصال ينفذ بكل واحدة منها، وهي اليمين، والنفار أي التنافر الى رجل يتبيّن حجيج الخصوم ويحكم بينهم، والجلاء وهو ان ينكشف الامر وينجلي فتُعلم حقيقته فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين.

فهو يكرهها وان كان متمسّكاً بها، وقد كرهها طرفة من قبله لانها لا تدوم؛ وبقي كره زهير للحياة في حدود التأوّه فقط، أما كره طرفة لها فقد كانت نتيجته مهاجمة الموت واستغلال الحياة القصيرة. وفيما يمثّل طرفة فئة العابثين الساخرين الذين يشكّون في كل شيء لا يكون المادّة والحاضر، والذين يريدون، مع كل ذلك، المحافظة على الصفات العربية، **يمثّل زهير فئة المؤمنين بالحياة الاخرى، النازعين نزعة روحية – وان كانت الروح عندهم غارقة في المادّة – المتمسّكين بالفضيلة البدوية العفيفة**. فالسعادة في نظره ليست في تتبّع الاهواء واستثمار الحياة، ولكنها في **السلام والفضيلة**؛ والفضيلة ذات فرعين، فرع متعلق بالحياة الشخصية، وفرع متعلق بالحياة الاجتماعية. فهو يريد للانسان ان يتحلّى **بالوفاء والقناعة** فلا يخون عهداً ولا يُلحّ في سؤال؛ وهو يرى من زينة النفس **الاقدام** اذا كان ضرورياً من غير ان يكون في الاقدام وقاحة تُعرّض صاحبها للشتم؛ وهو يحذّر الانسان من الرّئاء وتستير السيّئات، ويحرّضه على استئصالها، لان التستير لا يدوم والخفيّ لا يعتّم أن يظهر.

وأما من الوجهة الاجتماعية فزهير يحرّض على **المصانعة والسياسة**، وعلى بذل المعروف، **والتفضّل على القوم بقلب سخي ويد كريمة، ثم طلب الصلح**، والصّلح في نظره من أثمن الامور وأفضلها. ولما كان المجتمع الجاهليّ مجتمعاً فطرياً، يكثر فيه الظلم، ولا يُنال فيه الحقّ الا بالسيف يجرّده ذو الحق نفسه غير معتمد في ذلك على قوّة جيش أو عدالة محكمة، قدّم زهير رأياً نستغربه من رجل حكيم دأبه حبّ السلام والمصالحة، فقال:

وَمَن لا يَذُدْ عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ؛ وَمَن لا يَظلِمِ النّاسَ يُظلَمِ[1]

٣ – قيمتها : **حكمة زهير اوسع نطاقاً من حكمة طرفة، ولكنها دونها حياةً وتأثيراً. وهي ساذجة في اكثرها، بعيدة عن كل تفكير عميق، وثقافة وعلم،**

(١) يقول: مَن لم يدفع عن قومه انتهكت حرمته وأذلّ. وقوله «ومن لا يظلم الناس...» أي من انقبض عنهم وكفّ يده عن الامتداد اليهم رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه.

يرسلها الشاعر ارسالاً ولا يربط بين مختلف الآراء فيها؛ وهو الى ذلك يوردها بطريقة تعليميّة جافة، ويحاول دعم كل رأي من آرائه ببرهان هو نتيجة المخالفة وعقوبة العصيان. وهكذا كان دستور البدويّ تامًّا، يتضمّن نظام العمل ونظام العقوبات:

٦ً زهير شاعر الوصف:

١ — **نزعته الفنية**: يُعدُّ زهير من أبرع الوصّافين في العهد الجاهلي، لا لانه بلغ بالوصف مبلغاً فنيًّا رفيعاً، بل لانه أكثر من الوصف، وملأ به شعره، ووسع موضوعاته فشملت ما كان منها مادّياً كالأطلال والفرس والناقة وحمار الوحش وغيرها، وما كان معنوياً كحالته النفسية، والاذى وما الى ذلك؛ ثم لانه حقّق في وصفه مثال التصوير الفني الفطري، وجمال الصورة الذي يروق البدويّ وقد تسرّب اليه شعاع من أنوار الحضارة. وهكذا كان وصف زهير تحقيقاً للجمال البدويّ ولاسيا الأوسيّ، في أروع مظاهره، واتجـاهاً نحو الفنّ الحقيقيّ الذي ستعرفه الاجيال المقبلة.

والذي يُعنى به زهير في وصفه هو أن يكون أوسياً «كلاسيكيا» يتبع استاذه أوس بن حجر بكل دقة، ويتفوّق عليه في امور كثيرة. فيجنح الى الدقّة بكل قواه، والى التتبّع والعناية بالامكنة والحركات، معتمداً على المادة والحسّ اعتماداً شديداً مجسّماً كل شيء، متذرّعاً في عمليّاته بالتشبيه المادّي الذي يتابعه ويفصّله بعقل يرقب كل شيء، ويدير دفة كل شيء، ويدفع الخيال الى ما يريد من غير ان يفسح له مجالًا واسعاً للتحليق، وكل ذلك في اطمئنان وهدوء بحيث يبقى القارئ او السامع لهذا الوصف ساكناً لا يخرج عن هدوئه واطمئنانه.

٢ — **أما الدقّة**: فهي اوّل هموم زهير لانه يريد نقـل الصورة كما هي في الطبيعة ولا يطمع الا في تحقيق تلك الصورة كاملةً من غير ما زيادة ولا نقصان — الا فيما ندر — حتى تكاد تُرى بالعين، وتُسمع بالأذن، وتُلمس باليد.

فهو يُعنى بتحديد المكان والزمان بدقّة ما بعدها دقّة :

أَمِن أُمّ أوفى دِمنةٌ لم تكلَّمِ بحَومانَةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلِّمِ
ودارٌ لها بالرَّقمَتَينِ، كأنها مَراجيعُ وَشمٍ في نَواشِرِ مِعصَمِ[١]
وَقفتُ بها من بَعدِ عشرينَ حِجَّةً فَلَأْياً عَرَفتُ الدّارَ بَعدَ تَوَهُّمِ[٢]...

ثم يتابع كلامه ويصف سير الظعائن فينتقل معها من مكان الى مكان بطريقة تكاد تكون جغرافية .

وهو يُعنى بذكر الجزئيات ودقائق الاحوال يريد الاحاطة بالموصوف من كل جوانبه، فلا ينسى شيئاً من كلّيّاته وجزئيّاته مادّةً ولوناً وتركيباً . فهو اذا اخذ مثلاً بوصف الاطلال، ذكر الأثافيّ، ولم تفتْه «سُفعتها»، وذكر موضعها في «معرّس مرجلٍ». وهو اذا وصف حمار الوحش لم يغفل عن اخضرار شفتيه من أكل العشب الاخضر :

ثلاثٌ كأقواسِ السَّراءِ، ومِسحَلٌ قد اخضرَّ من لَسِّ الغَميرِ جحافِلُه[٣]

وهو اذا اراد وصف مُلجم الفرس الطويل، لم يغفل عن وقوف ذلك الرجل على أنامل رجليه للتمكُّن من قذال ذلك الفرس :

ومُلجِمُنا ما إن يَنالُ قَذالَهُ ولا قَدَماهُ الأرضَ، إلّا أَنامِلُه[٤]

---

(١) الرّقمتان : احداهما قرب المدينة والاخرى قرب البصرة؛ وقوله بالرّقمتين اراد به بينهما . الوشم : نقش بالابرة على اليد : فشبّه آثار الديار بوشم ترجعه الفتاة وتردده حتى يثبت في معصمها؛ والنواشر : عصب الذراع؛ والمعصم : موضع السّوار من الذراع (٢) الحجّة : السنة . لأياً : بعد جهد وبطء (٣) السّراء : شجر تُتخذ منه القسيّ؛ شبّه الأتن بالأقواس لأنهنّ اجتزأن برعي الرّطب عن شرب الماء، فطواهنّ وأضمرهنّ فكنّ كالقسيّ . المسحل : حمار الوحش . اللسّ : الأخذ بمقدّم الفم . الغمير : نبت أخضر قد غمره نبتٌ آخر اطول منه . جحافله ج جحفلة، وهي شفة الحيوان (٤) يقول : وان كان قد اطمأنّ قذاله (وهو معقد العذار من رأسه)، فلجمنا لا يكاد يناله لطوله، ولا تنال قدماه الارض وقد قام على اطراف اصابعه، فانما ينال الارض منه أنامله خاصّة .

وهو كثيراً ما يعمد الى عبارات تدقيقية يزيدها على كلامه لمجرّد توصيع الجزئيات والنواحي التي تتمّ المشهد، فإذا اراد الكلام على النؤي مثلاً شبّهه ليوضح لنا شكله، وزاد على كلامه قوله «لم يتثلّم» مخافة ان يظنّ السامع ذلك الحوض قد تكسّر حاجزه لتقلّب الاحوال عليه:

أثافيَّ سُفعاً في مُعرَّسِ مِرجَلٍ ، ونُؤياً كَجِذْمِ الحوضِ لم يتثلَّمِ [1]

واذا اراد تشبيه فتات العِهْن الباقي في كل منزل نزل به الظعائن، شبّهه بحب الفنا الاحمر، وزاد على كلامه قوله «لم يُحطَّمِ» لان ذلك الحبّ اذا حُطّم لم يبقَ على لونه من الحمرة، ولم يعبّر عن الصورة تمام التعبير:

كأنَّ فُتاتَ العِهنِ ، في كلِّ مَنزِلٍ نَزَلْنَ به ، حَبُّ الفَنا لم يُحطَّمِ [2]

٣ ــ **واما التجسيم** فيعمد اليه الشاعر لجعل الصورة قريبة المتناوَل، يسهل على البدوي فهمها. وذلك لان زهيراً يرمي دائماً في شعره، شأن الخطيب، الى الاقناع وهو لا يكتفي بتجسيم الماديّات، وابرازها ملموسةً، يدركها الحسّ بقوّة، بل يجسّم المعنويات ايضاً. فإذا أراد الكلام على الحرب واهوالها ونتائجها، جعل تلك الحرب حيواناً ولوداً، يُلقح في السنة مرّتين ويلد توأمين؛ وجعل افناءها الناس بمنزلته طحن الرّحى للحبّ، وعبّر عن شرورها بالاولاد، وعبّر عن شدّة تلك الشرور وكثرتها بالولادة مرّتين بالاتئام:

وما الحربُ إلّا ما علِمتُمْ وذُقتُمُ — وما هُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ [3]

متى تَبعَثُوها ، تَبعَثُوها ذَميمةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيتُمُوها فتَضْرَمِ [4]

---

(١) أثافي ج أثفيّة: وهي حجارة تُنصب فتوضع عليها القدر. السفع: السود يخالطها حمرة. معرّس المرجل: حيث اقام. النّؤي: حفير يُطيف بالخباء يصرف عنه ماء المطر. جذم الحوض: اصله. لم يتثلّم: لم يتشقّق (٢) الفُتات: ما تفتّت من الشيء. العهن: الصوف المصبوغ. الفنا: شجر له حبّ احمر؛ شبّه ما تفتّت من العِهن الذي علِق من الهودج بحبّ الفنـا الذي لم يحطّم، لانه اذا حُطّم ظهر له لون غير الحمرة وانما تشتدّ حمرته ما دام صحيحاً (٣) ذقتم: جرّبتم. المرجّم: المظنون؛ أي ليس امر الحرب بالحديث المظنون، بل هو امر خبرتموه. (٤) تبعثوها ذميمة: أي ان لم تقبلوا الصلح وهجتم الحرب لم تحمدوا امرها. تضرَ: تشتد.

فتعرِكْكُمُ عَركَ الرَّحى بثِفالِها وتَلقح كِشافاً ثمَّ تُنتِجْ فتُتئِم[١]...

واذا اراد الكلام على ما يلحق الانسان، الذي لا يصانع، من اذى، تصوَّر الاذى وحشاً ضارياً ذا أنياب وأظفار يُعمل في ذلك الانسان انيابه وأظفاره :

ومَن لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بِمَنسِمِ[٢]

وزهير يتذرَّع بالتشبيه في تجسيمه للاشياء؛ والتشبيه عنده ماديٌّ في جميع عناصره؛ ولكن لهذا التشبيه ميزةً خاصة، وهي ان الشاعر اذا أخذ فيه تابعه واخرجه تاماً في دقائقه وكل ما يتضمنه؛ فان شبَّه نتائج الحرب بغلَّة الارض، انتقى ارض العراق المخصبة؛ وذكر قراهـا، والمكيال الذي تُكال به حبوبها الى غير ذلك من التفاصيل التشبيهيّة :

فتُغلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لِأهلها قُرًى بالعِراقِ من قَفيزٍ ودِرهَمِ[٣]

وإن شبّه حُصينَ بن ضِمضم بأسد أعطانا منه أسداً حقيقياً بأظفاره ولبدته :

لدى أَسدٍ شاكي السِّلاحِ، مُقذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ، أظفارُهُ لم تُقلَّمِ[٤]

وهذا التشبيه يتحول عند زهير أحياناً الى استدارة طويلة. ففي قصيدته التي مدح بها هرماً واهله ومطلعها :

إنَّ الخليطَ أَجدَّ البَينَ فانفرَقا وعُلِّقَ القلبُ مِن أسماءَ ما عَلِقا

أتى على ذكر دمعه، فشبّه عينيه بدَلوين، ووصف الناقة التي تجرّ ذينك الدلوين،

---

(١) الثِّفال : جلد يُبسط فتوضع فوقه الرَّحى فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق؛ وقوله «عرك الرحى بثفالها» أي على ثفالها أو مع ثفالها أي حال كونها طاحنةً لانهم لا يثفلونها إلا اذا طحنت. تَلقح : تحمل. كشافاً : اللقاح مرَّتين في السنة. تُنتِج : تلد. (٢) من لا يُصانع : من لا يجامل الناس ويدارِهم. يُضرَّس : يُمضغ. المنسِم : ظفر البعير. يقول : من لا يجامل الناس في أكثر الامور أصيب بما يكره وعُضَّ بالقبيح من القول (٣) فتغلل لكم...: يعني ان هذه الحروب تغلّ من الدّيات بدماء قتلاكم ما لا تغِلّ قرى بالعراق، من قفيز ودِرهم؛ والقفيز نوع من المكاييل (٤) شاكي السلاح : أي سلاحه شائكة حديدة، فهو ذو شوكة. المقذَّف : الكثير

كما وصف الرجل الذي يسوقها ، والجدول الذي يصبّ فيه الماء ، والضفادع التي تخرج من الجدول خوفاً من الغرق الى غير ذلك من غرائب ذلك الاسلوب .

٤ ـ **واما الحياة** فلا تخلو منها اوصاف زهير . وهي تتجلى في **الحركة** التي يعبر الشاعر عن دقائقها في مشاهده ، والتي يجعلنا نحضر أطوارها وتقلباتها ؛ كما تتجلى في **القصص** الذي يضيفه الشاعر الى اوصافه . ومن أجمل المشاهد التي تنبض فيها الحياة، وتظهر بمختلف حركاتها ، مشهد الصيد الذي صوره الشاعر بمهارة عظيمة فأرانا غلامه « يدب ويُخفي شخصه ويضائله » ، وارانا الشياه « يُثرن الحصى » ، وارانا الصيادين يطاردون العيْر ، وهو ينسلخ من الجياد ويتقدّمها . . . وقد **عبّر الشاعر بواسطة الافعال عن الحركة**، واكثر من **الافعال المضارعة** التي تدلّ على الاحوال المنظورة، والتي تجعلنا نبصر الحوادث الماضية كأنها تجري تحت اعيننا :

فبَيْنا نُبَغّي الصَّيدَ جاءَ غُلامُنا ... يَدِبُّ ويُخفي شَخصَهُ ويُضائِلُه (١)
فقالَ : شِياهٌ راتعاتٌ بقَفرَةٍ ... بمُستأسِدِ القُرْيانِ حُوٍّ مَسايلُه (٢) . . .
فتَتَبَّعَ آثارَ الشِّياهِ وَليدُنا ... كشُؤْبوبِ غَيثٍ يَحفِشُ الأُكْمَ وابِلُه (٣) . . .
يُثِرْنَ الحصى في وَجهِهِ وَهوَ لاحقٌ ... سِراعٌ تَواليهِ صِبابٌ أَوائلُه (٤) . . .

* * *

هذا هو الوصف عند زهير ؛ انه مادة مجسّمة متحركة ، فيه تلوينٌ وفيه إيغال وتفصيل حتى لتبدو الصورة كاملة ؛ وليس هنالك اختيار في الجزئيّات واقتصار على التفاصيل الايحائية ، وليس هنالك غموضٌ ولا تلميح وان اتّسم كلام الشاعر بسمة

---

(١) نُبغّي : نبتغي . يدبّ : يمشي راجلاً . يضـائله : يصغّره (٢) الشّياه : الحُمُر الوحشية . المستأسد : ما طال من النبت وقوي . القُريان : مجاري الماء الى الرّياض . الحُوّ : ذات النبات الشديد الخضرة . المسايل : حيث يسيل الماء (٣) فتبّع : أي فتتبّع . الوليد : الغلام . الشؤبوب : الدّفعة من المطر ؛ شبّه الصباب الفرس وحفيف جريـه بالشؤبوب وصوته . يحفِش الأكم : أي يكثر سيل الآكام حتى يستخرج ذلك السيل ما فيها . الوابل : اغزر المطر واعظمه قطراً (٤) سراع تواليه : يعني رجليه وعجزه لانها تلي مقدّمه . صِبابٌ اوائله : اي ان يديه وصدره تنصبّ كالسّيل .

الايجاز الرّصين . وقد جمع ذلك الوصف ، الى الوان الفطرة والسذاجة الجاهلية ، بعض الافتنان في التشبيه والتعبير .

الخاتمة :

هكذا كان زهير — على حدّ قول الاستاذ بطرس البستاني — « قاضي صلح يُصدر احكامه شعراً — لا لمح ، ولا غموض ، ولا يقول إلا ما يعرفه الناس » . فقد حكّم العقل في كل قول يقوله ، وكانت نفسه — اذا نظم شعراً — نفس الحكيم المطمئن الذي لا يزدهيه فرح ولا تستخفّه عاطفة ، والذي يرمي في كل حال الى الاصلاح القبلي ، فينثر حكَمه في قالب تعليميّ ويتخذ ابداً مذهباً خطابياً ، ينزع فيه الى الايضاح وتقريب المعنى بالتشبيه المادي ، ومن ثَمَّ فهو يتخذ الوصف طريقاً الى غايته ، ويبدو وصافاً ماهراً . وتأخذ القصيدة القديمة شكلها النهائي عند زهير ، فيكون لها مقدمة وموضوع وخاتمة ، ولا نعود نشعر بخنادق وممرّات بين ابياتها ، اذ لا نراها توزّع على موضوعات ومناظر عديدة كما هو الشأن في مطوّلتي امرئ القيس وطرفة ، إنما نرى (التنسيق) الوثيق والرّبط المحكَم . والحق ان زهيراً استطاع ان يحقق لصنعة الشعر في العصور القديمة كل ما يمكن من تحبير وتجويد ، فقد اصبح الشعر عنده حرفة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة[1] . . . » .